تحويل شراع القبطان

وانتهز محمد علي فرصة انهماك الألفي في محاصرة دمنهور، وأرسل إلى حاشية صالح باشا القبطان مزيدًا من الهدايا والرشاوي ليحولهم إلى صفه، وقد أحدث المال في نفس صالح باشا ونفوس بطانته تحولًا كبيرًا في وجهة نظرهم، وزاد هذا التحول خيبة الألفي في الاستيلاء على دمنهور، وما تبين لصالح باشا من انقسام المماليك وتخاذلهم، فإن البرديسي لما رأى ارتباط الألفي بالإنجليز أعرض عن تأييده لحقده عليه، ولأنه من أنصار الالتجاء إلى فرنسا، وقد تبين لصالح باشا عبث الاعتماد على المماليك والركون إليهم؛ لأن الألفي تعهد أن يؤدي له ١٥٠٠ كيسا، كان ثمن إعادتهم للحكم، وأوفد رسولًا إلى زملائه إبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسي وعثمان بك حسن، وكانوا وقتئذ بالصعيد يسألهم معاونته في أداء هذا المبلغ، ولكنهم ردوا الرسول خائبًا، وعلم صالح باشا بذلك؛ فغضب على الألفي وأخذ يفكر في تغيير خطته، ورأى أن تأييد زعماء الشعب لمحمد علي ورفضهم ولاية موسى باشا وفشل الألفي في اقتحام دمنهور، كل هذه الأسباب تبرر تحويل شراعه إلى محمد علي.

وفي غضون ذلك وردت من الباب العالي إلى صالح باشا رسالة؛ تطلق يده وتفوض إليه أن يتصرف على ما يراه صالحًا، ومعنى ذلك أن حكومة الأستانة رجعت عن فرمانها القاضي بعزل محمد علي باشا عن ولاية مصر، فقرر صالح باشا أن يثبت محمد علي في منصبه وأرسل إليه رسوله لوضع اتفاق جديد. ويستقبل محمد علي رسول صالح باشا بالبشاشة قائلًا:

- أهلًا بك وبأوامر قبودان باشا التي سننفذها بكل سرور وامتنان.
- الباشا يطلب منكم أن تؤدوا للباب العالي ٤٠٠٠ كيسا
- هل يمكن الانتظار لحين تدبيرها؟
- لا توجد مشكلة، ولكننا سنأخذ نجلكم إبراهيم معنا إلى الأستانة رهينة؛ لحين إرسال المطلوب.
- ليس لدينا أي مانع..

وانتهت المشكلة بورود مرسوم إلى محمد علي يتضمن إبقاءه واستمراره على ولاية مصر، إذ إن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس. فَزُيِّنت القاهرة لهذا النبأ ثلاثة أيام متوالية وابتهج الشعب لانتصار إرادته.

ويستدعي الباشا ابنه إبراهيم ويختلي به ويبدأ الباشا حديثه قائلًا:

- ستذهب يا إبراهيم إلى الأستانة مع صالح باشا..
- كما تشاء يا أبي..

- لن يطول مكوثك هناك؛ فسوف أعمل على إرسال المال المطلوب في فترة قصيرة.
- إنني أثق في حكمتكم يا أبي، حتي وإن طال مكوثي هناك.
- المهم يا بني، إنني سأرسل معك بعض الهدايا لبعض رجال الحاشية في الأستانة، سأذكرهم لك واحرص على تسليمها بنفسك لكل واحد منهم.
- سأبذل قصاري جهدي يا أفندينا..

وهكذا انتهت المؤامرة بالإخفاق والفشل، وأقلع القبودان صالح باشا بعمارته البحرية من الإسكندرية يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٦ ومعه موسى باشا وإبراهيم بن محمد علي. وبذل محمد علي جهده بمساعدة زعماء الشعب؛ فأدى الأربعة آلاف كيسا كاملة في أوائل نوفمبر سنة ١٨٠٦، فجاءه رسول من الأستانة، يحمل فرمانين أحدهما بإقراره في حكمه، والثاني يأمره فيه بتسفير المحمل إلى الكعبة المشرفة وإرسال القمح المطلوب إلى جدة، كما يُذَكّر محمد علي أن الباب العالي قد أعطى الأمان للمماليك في مصر ويطلب منه عدم محاربتهم. وبذلك استقر محمد علي على عرش مصر.